جهنّم

لا نسمع كلمة « جهنم » هذه الأيام إلا فى نكتة .

وقد تحولت جهنم فى ذهن الرجل العصرى إلى أسطورة يذكرها وهو يبتسم ، وكأنما يتذكر منظرًا فى رواية لدراكولا .

وأصبح مألوفًا أن نجد بين المؤمنين من يتكلم عن جهنم فى شك ..

ونسمع من يتساءل قائلا :

« كيف يعذبنا الإله الرحيم .. ومن نحن حتى يعذبنا .. إنه لا شك يخوفنا ولكنه سوف يفاجئنا يوم الحساب بالعفو الشامل ويدخلنا برحمته جميعًا فى الجنة .. مستحيل على الإله الرحيم أن يعذب أحدًا .. مستحيل .. » .

ويتصور المتكلم أنه بذلك يرد اعتبار الرحمة للرحيم وأنه يقدر الله

حق قدره .. والحقيقة أنه يسيء إلى الخالق من حيث يتصور أنه يحسن . ويلصق به الظلم من حيث يتصور أنه يصفه بالعدل .

تلك الصورة الساذجة لإله يساوى بين المجرمين وبين ضحاياهم فى الجزاء ويقيم للقاتل والقتيل كليهما حفلة شاى ..

من يكون ذلك الإله إلا إلهاً ظالماً ..

وهل يستوى الأبيض والأسود إلا عند الأعمى ؟

إنه منتهى سوء الظن بالله أن نتصور أنه يضع كل الناس فى الجنة ويساوى بين السفاحين الجبارين وبين الألوف من قتلاهم الأبرياء الذين هلكوا فى السجون .. لمجرد أننا لا نتخيل إلهاً يعذب .

ولا أدرى من أين جاء المؤمن أو الكافر بأن الله لا يمكن أن يعذب ؟

وإذا اتخذنا دنيانا مثلا .. واتفقنا بأن هذه الدنيا التى نعيشها من خلق الله .. فلابد أن نوافق بالإجماع على أن الله يعذب .. فلا شىء فى هذه الدنيا أصدق من العذاب ..

من الذى خلق الميكروب ؟

من الذى خلق السم فى الثعبان ؟

من الذى يفجر البركان ويغرق قرى بأكملها تحت الحمم الملتهبة ؟

من الذى خلق زمهرير القطبين ورفع الشمس عمودية تسلق جلود سكان خط الاستواء ؟

من الذى قضى علينا بآلام الشيخوخة وأوجاع الحمل ؟

من الذى يدفن المدن تحت الزلازل ؟

إنه ليس الشيطان .. ولكنه هو هو نفس الإله الرحيم الذى وضع العطر فى الزهرة والترياق فى العشب .. وهو هو نفسه الذى خلق الربيع والصحة وأودع القوة فى العضلات والحب فى القلوب والبسمات على الشفاه .. وهو هو ذاته خالق الحنان والمودة والتعاطف .. وهو الذى أعطانا العقل والحيلة لنركب البحر والبر والجو ، ونتغلب على الحر والبرد ، ونقاوم المرض والموت .

وهو هو الذى وفّر لنا الغذاء والكساء وأسبغ علينا ثوب العافية والسعادة .

وقد وصف نفسه فى كتابه فقال إنه النافع الضار .. وإنه المحيى المميت .. وإنه الخافض الرافع والقابض الباسط .. وإنه المعز المذل .. وإنه الفعال لما يشاء الذى يعذب من يشاء .. لا راد لقضائه ولا معقب لأمره .. ولا يسأل عما يفعل ..

وفى نفس هذه اللحظة التى أكتب فيها هذه الكلمات هناك عشرات من عربات الإسعاف فى كل مكان بالعالم تحمل على محفاتها محروقين يئنون ويتحشرجون ويصرخون ..

ولا شىء من هذا يحدث ضد المشيئة الإلهية .. وإنما كل شىء يحدث بعلم الله وتقديره .

وقد نفعل ما لا يُرضى الله فنسرف ونقتل وندمر ونحرق ولكننا لا نستطيع أن نفعل ما لا يشاء الله .. فجميع الأحداث والأفعال تحدث ضمن المشيئة الإلهية وإن خرج بعضها عن الرضا الإلهى .

وفى مشيئة الله وفى ألواح قدره أن هناك الشقى والسعيد ، وأن هناك من يقضى له بالنعيم ومن يقضى عليه بالعذاب بل بالحرق وفى هذه الدنيا عينها التى نعيشها .

ومصداق هذا الكلام واضح فى حياتنا وشواهده فى دفتر يوميات كل شخص .. وليس بحاجة إلى برهان .

وأكثر من هذا نعلم من خبراتنا المباشرة أن العذاب لا يتناقض مع الرحمة بل يكون أحيانًا هو عين الرحمة .. فهناك نفوس لا تستفيق إلا بالعذاب .. بل تكاد تكون القاعدة أن القلب لا يصحو إلا بالألم . والنفس لا تشف وترهف إلا بالمعاناة ، والعقل لا يتعلم إلا بالعبرة ، والقدم لا تأخذ درسًا إلا إذا وقعت فى حفرة .. فجهنم الدنيا لا تتنافى مع العدل الإلهى إذا نظرنا للأمور كلها نظرة شاملة .. والحالات الفردية التى نعجز فيها عن رؤية الحكمة فى العذاب والتعذيب يكون سببها جهلنا وقصورنا عن الإحاطة وليس أبدًا ظلم الله ..

جهنم إذن موجودة بكل درجاتها فى النموذج المصغر والعينة التى نعيشها والتى اسمها الدنيا .. هى موجودة من الحريق الفعلى الذى يسلق الجلد نزولا إلى الألم النفسى والمعنوى .. وكلها من تدبير الله وفعله

وخلقه .. وكلها رحمة .. وكلها لحكمة أحيانًا تظهر لنا وأحيانًا تخفى علينا ..

هذه هى الحقيقة المشاهدة الملموسة .. فلماذا تستبعد العقول فكرة الإله الذى يعذب .. وفكرة جهنم .. مع أننا نعيش عينة مصغرة من جهنم كل يوم .

نقول هذا الكلام للذين فهموا الله فهمًا سطحيًّا وتصوروا أن العذاب والتعذيب محال عليه مناقض لرحمته ، وأنه سوف يسوى فى آخرته بين المجرمين والشرفاء فيدعو الكل إلى جروبى ويقدم لهم ما لذ وطاب باسم المحبة الخالصة التى وسعت كل شىء .

نقول لهم إن الله يعذب .

وإن عذاب الله دائمًا هو عين رحمته .

وإن هناك ضمائر لا تتيقظ إلا بالعذاب .

وإن هناك عقولا لا تعرف الله إلا حينما ترى عذابه ، وإن هناك نفوسًا مظلمة لا تشهد الحق فى النعمة ، ولا سبيل إلى تعريفها بالحق إلا بالعنف .. مثل اللحم الميت الذى لا علاج له إلا بالكى .

ولمثل هؤلاء جهنم هى عين الرحمة لأنها الوسيلة الوحيدة الباقية للتعليم بعد أن أصر المنكر على إنكاره والمتعامى على عماه وبعد استنفاد كل السبل السلمية للإقناع وبعد أن فشلت الكتب والرسل وعبر التاريخ وآيات السماء فى التماس مدخل إلى القلب .

حينئذ تصبح جهنم هى الجراحة الوحيدة الممكنة لفتح العين وإشهاد الحواس ..

وهى بهذا المعنى لا تتنافى مع رحمة الرحيم بل هى عين رحمته .